تأملات في العقل والسلوك

للفقير إلى ربـــه
محمد بن إبراهيم التويجري

الطبعـــــــة الرابعة
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية / بريدة

دار أصداء المجتمع

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

القصيم – بريدة

هاتف : ٠٠٩٦٦٦٣٢٣٦٣٣٣

فاكس : ٠٠٩٦٦٦٣٢٣٦٢٧٧

جوال : ٠٠٩٦٦٥٠٥١٣٦٣٣٣

الإهـــداء

إلى العقول المبصرة ، والقلوب المستبصرة ...
إلى كل من يستمتع بضياء العقل ... وينشد سبيل الرشد ... ويبتهج بروضة الذكر والفكر ... مع قوة في العزيمة ... وقوة في الإرادة ... ورؤية واضحة.
ترى الحق جلياً ، وتتبعه أينما حل ، وحيثما ارتحل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد بن إبراهيم بن عبدالله التويجري
المملكة العربية السعودية – بريدة
جوال: ٠٥٠٨٠١٣٢٢٢ – ٠٥٠٤٩٥٣٣٣٢
البريد الإلكتروني:Mb_twj@hotmail.com
موقعنا على الأنترنت (هذا الإسلام) hatha-alislam.com/index

قال الله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥ ﴾

[النحل/ ١٢٥]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

كنت أراه قلقاً باستمرار ، لايمسكه المكان ، ولايسعه الزمان.

أحاديثه مبعثرة.. وأفكاره مشتتة ..ضعيف في كلامه .. سقيم في ألفاظه .. مهمل في دوامه .. رائحته كريهة .. وأخلاقه بذيئة .. مضطرب الفؤاد .. سيء المزاج.

فقلت في نفسي :

لو رأيته يَغرق في ماء أو يحترق في نار لنصرته .. وهو الآن يتخبط في الظلمات .. ويرتع في الشهوات.

آثامه على ظهره كاملة ، وساحته من الخيرات خالية .

فأهمني أمره لِمَا رأيت من سوء حاله ، وبعثرة أمواله ، وإهدار أوقاته.

فقلت: نَصْرهُ هنا ليس بأقل من نصره هناك ، فاستعنت بالله ، وسألته العون والتوفيق ، والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة.

وذات يوم خرج مبكراً فقلت:لأتْبعنه ، فألفيتُه يُشعل السجائر واحدة تلو الأخرى.

سلمت عليه ، واستوقفته ، وجلست بالقرب منه ، وجرى بيني وبينه الحوار التالي :

قلت له : إن كل شجرة حية من الأشجار تحتاج إلى سقي ، لتبقى حية سليمة ، و تعطي ثماراً طيبة كثيرة ، قال: هذا لا يحتاج إلى دليل فهل غير هذا ؟

قلت: هذا الذي أردت ، إنك أحد هذه الأشجار، قال: وإذا كنت كذلك .

قلت: فإنك تسقيها يومياً بما يضعفها ويتلفها لا مرة واحدة ، بل أضعافاً مضاعفة .

قال: كأنك تقصد التدخين ، قلت: إياه قصدت ، فمنذ كم سنة تدخن؟

قال: وما يعنيك هذا ، لست مكلفاً بمتابعتي ، ولا مطالباً بالصرف علي .

قلت: لاهذا ولا ذاك ولكنها المحبة والأخوة والمودة .

فإن أحببتَ انصرفت عنك ، وإن أنستَ تحدثت إليك ..

قال: قد أنصفت ، وبالحق نطقت ، والحق أوسع الأشياء ، لا يكون لأحد إلا كان عليه ، وما دمت خيَّرت ، وبالتي هي أحسن أفهمت ، فسل ما شئت ، على أن لا تثقل علي ، فإن أحسن القول أوجزه.

قلت: فما تقول فيما أسلفت؟

قال: منذ خمسة عشر عاماً وأنا أدخن .

قلت: وكم تدخن يومياً ؟ قال: أربع علب ، وفي العلبة عشرون سيجارة .

قلت: إذاً تدخن يومياً ثمانين سيجارة ، قال: بالضبط ، تزيد حيناً ، وتنقص أحياناً .

قلت: وما قيمتها ؟ قال: قيمة العلبة الواحدة (١٠) ريالات ، قلت: وقيمة علب اليوم ؟ قال: (٤٠) ريالاً ، قلت: إذاً تدخن في الشهر بما قيمته (١٢٠٠) ريال ، وفي السنة تدخن بما قيمته (١٤٤٠٠) ريال تقريباً.

قال: لا : قلت: بلى وتدخن في عشر سنوات بما قيمته (١٤٤٠٠٠) ريال ، وفي عشرين سنه بما قيمته (٢٨٨٠٠٠) ألف ريال ، قال: لا أصدق.

فدعني أتناول سيجارة لأستعيد ذاكرتي ، وأعقل ما قلت لي .

قلت: هيهات إنك لاتجني من الشوك العنب .

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسناً ماليس بالحسن

فأخرج بيده السيجارة ، وأخرجت السواك ، وبعد هنيهة قلت: مامُرتَّبك؟

قال: ماشأنه ؟ قلت: كم هو؟ قال:(خمسة آلاف ريال) قلت: والأولاد ؟ قال: يشكون ضيق الحال ، قلت: والمنزل ؟قال: بالآجار.

قلت: ويحك ! أتدري كم تصرف على التدخين منها ؟ قال: قد علمت، والأرزاق بيد الله.

قلت: ولكنك مسئول عنها ، من أين اكتسبتها ، وفيم أنفقتها ؟ وعن الجسم كيف أفسدته؟ وعن الصحة كيف أهدرتها ؟وعن الوقت كيف أضعته ؟

قال:حنانيك قد بلغ السيل الزبى ، قلت: ولكن هذه هي الحقيقة ، أما علمت أن خير المال ماأُخذ من الحلال ، وصُرف في الحلال ، وأصلح الحال .

وشر المال ما أُخذ من الحرام ، وصُرف في الآثام ، وأفسد الحال .

فأطرق ملياً ثم قال: وهل غيرُ هذا ؟ فقد ركبتني الهموم والديون.

قلت: كم تستغرق من الوقت في شرب سيجارة واحدة ؟

قال: خمس دقائق حينًا ، وعشراً أحياناً .. قلت: معنى هذا أنك تهدر من وقتك يومياً (٨) ساعات .. و شهرياً (٢٤٠) .. ساعة وسنوياً (٢٨٨٠) ساعة ، أي (١٠) أيام في الشهر و(١٢٠) يوماً في السنة

قال: لا يكون هذا.

قلت: قد صار هذا بلا ريب ، وتهدر من وقتك كل عشر سنوات في التدخين (٢٨٨٠٠) ساعة ، أي (١٢٠٠) يوم ، وهذا معناه : أن ثلث اليوم ، وثلث الشهر ، وثلث السنة ، وثلث عشر سنوات ، كلها تذهب سدىً في التدخين ، وفيما يضر ولا ينفع ، وهذه مصيبة ، إلى جانب

مصيبة المال ، وأدهى منهما مصيبة البدن ، وأعظم من الجميع ألا يفطن الإنسان لمثل هذه المصائب أو يشعر بها ، وهو غارق في جوفها ، وأكبر المصائب الغفلة عن الله والدين.

ثم قلت: أي نوع من السجائر تدخن؟ قال: كل الأنواع جربت ، ومع جميعها تعاملت.

قلت:... قال: قد أكثرت من القول ، فدعني أتناول الشاي مع السيجارة لأستعيد بعض النشاط .

قلت في نفسي : لايستوي الخبيث والطيب ، وأخذ يشرب الشاي ، ويدخن السجائر ، دلو من الماء ، ودلو من الطين ، فأنى يصفو لمثل هذا شيء.

وبعد برهة عدنا إلى الحديث.

قلت: قد أَسلفتَ قبل قليل أنك تدخن أربع علب من السجائر يومياً ، قال: وأحياناً أكثر .

قلت: أتدري كم طول السيجارة الواحدة ؟ قال: لم أكلف نفسي بهذا، قلت: ولكنها قريبة ومحسوسة فلا حرج من قياسها..

فناولته المتر فوجد طولها (٧) سم ... قال: هذا طولها فما عندك ؟

قلت: إذاً فطول سجائر العلبة الواحدة (١.٤٠) متر، وأربع علب (٥.٦٠)متر ، قال: وبالطبع يكون طول سجائر الشهر حوالي (١٦٨) متراً ، وسجائر السنة (٢.١٦) كيلو متر تقريباً.

قلت: والأدهى أنك تدخن في عشر سنوات سجائر طولها (٢٠.١٦٠) كيلو متر ، كلها تنزف وتصب في بدنك سموماً قاتلة .
قال: ماأشد هذا فهل يكون صحيحاً ؟ قلت: قد شاركتني في الحساب ، قال: صحيح ، ولكني أجد نفسي مجهداً ومتعباً من هذه الإحصائيات .
قلت: ماحملت ولا رفعت حتى تجهد ، ولكنها الحقيقة التي بدأت تتكشف أمامك ، فلا عليك إن بقيت حتى تسمع بقية الحديث.
قال: هات ...

* * * * *

قلت: في أي الأماكن تدخن؟ قال: في أغلب الأماكن.
قلت: يعني في المنزل ، وغرفة النوم ، وبين الأهل والأولاد ، وفي السيارة والأماكن العامة.
قال: وفي القطار والطائرة ، وبيوت الأصدقاء ، والشوارع العامة ، قلت: لقد ملأت الزمان والمكان إذاً.
قال: وماذا في ذلك ؟ .. قلت: والأعجب من ذلك أنك لاتستنكر ذلك.
ثم قلت: أتدري كم يراك من الناس وأنت تدخن في هذه الأماكن قال: الناس كل في سبيله ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ،

قلت: عزمت عليك إلا أخبرتني ، قال: ما هكذا اتفقنا ، قلت: بلى اتفقنا على قول الحق قال: لا بأس ، حينما أُدخن قد لا يراني أحد ، وأحياناً يراني واحد ، وأحياناً عشرة ، وأحياناً مائة ، وأحياناً أكثر ، وأحياناً أقل.

قلت: هكذا كل يوم قال: نعم ، ومنذ خمسة عشر عاماً ، قلت: لقد ظلمت كل واحد منهم. قال: كيف ولم أسرق مالاً ، ولم أوذي أحداً ، قلت: إنَّ الهواء الذي نتنفس منه كل يوم خلقه الله نقياً طيباً فأفسدته على الناس ، وعلى نفسك ، في كل مكان أشعلت السجائر فيه، فكنت سبباً فيما يحصل لبعضهم من أضرار،ومايصيبهم من أمراض.

وقد يأكلون أطيب الطعام ، ويشربون أعذب المياه ، ويلبسون أحسن اللباس ، ويفترشون أجود السجاد ، وأنت بينهم تدخن ، تلوث طعامهم وشرابهم ولباسهم ، وقد تحرق سجادهم ، وتغري صبيانهم وسفهائهم، هكذا بلا حياء مشغول بنفسك، غير مكترث بمن حولك.

أتراهم يحمدون فعلك ؟ أم يعجبون بأنانيتك ؟ أما كنت سبباً في بعض الحرائق ، أما كنت قدوة سيئة للزوجة ، والأولاد ، وسائر الأفراد ، لقد شهد الله والملائكة والناس عليك بسوء فعلك ، كما شهد المكان والزمان والجوارح على ظلمك وشرك ، وستؤدي الشهادة أمام رب العالمين.

قال: قد يكون بعض هذا صحيحاً ، وفي سلامة الدين ما يُرضي الفؤاد ، ورضى الناس غاية لا تدرك.

قلت: ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فأصنع ما شئت .

وبلا ريب عندما يفقد الإنسان حاسة الشم تستوي لديه الروائح النتنة، والروائح العطرة.

* * * * *

ثم قلت: أين تسكن ؟ قال: في منزل بين الناس .

قلت: وفيه الكهرباء والماء ؟ قال: والتلفون أيضاً ، قلت: وما لون بيتك؟ قال: لون واحد ، قلت: وكم مرة تدهنه في السنة ؟ قال: وهل يُدهن المنزل إلا مرة واحدة كل بضع سنوات .

قلت: أما علمت أنك تملك منزلاً آخر أعظم منه ، تدهنه وتصبغه يومياً بالسموم المحترقة ، ذات الروائح الكريهة حوالي (٤٠٠) مرة ، إذا قلنا في كل سيجارة خمس مصات ، وفي كل مرة يزداد سواده ، وتسوء حاله ، وتصبغه في كل شهر (١٢)ألف مرة ، وفي السنة(١٤٤) ألف مرة ، وفي عشر سنوات مليون و(٤٤٠) ألف مرة .

فأي غفلة هذه..وأي جهل هذا.. وأي إسراف هذا .. بل أي ظلم هذا.

قال: لا يكون هذا ؟.. قلت: والعجيب أنك تقوم بنفسك بهذا العمل، ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً ، عمداً لا سهواً ، بيدك الشريفة ، ونقودك الثمينة .. فكيف تنكره ؟

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ثم قلت: هل زرت المستشفى؟ قال: مرات لا أحصيها ، قلت: ولم ؟ قال: للعلاج ، قلت: وتشرب السجائر فيها ؟ قال: لا أفارقها.

قلت: ولكن الأطباء مجمعون على أضرار التدخين ، فهل أسمعك الطبيب شيئاً عن خَلْق الإنسان ، وأجهزته التنفسية والهضمية والعصبية ، وعن الدورة الدموية ، ووظائف القلب ، والرئتين والكبد وغيرها مما يؤثر عليه التدخين.

قال: لا، قلت: ولا مره واحدة.

قال: لديه من الأعمال ما شغله عن ذلك.

قلت: إليك إذاً بعض ما ذكره الأطباء عن الإنسان ، وما فيه من العجائب الإلهية،والمعجزات الربانية : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات/ ٢١] .

قال: أسمع.... وكيف لا أسمع وقد أَسَرْتني بهذه الأرقام المخيفة .

قلت: ذكر الأطباء أن الإنسان يتنفس في اليوم والليلة (٢٤) ألف نفس تقريباً ، نصفها نهاراً والآخر ليلاً .

وقالوا إن وزن قلب الإنسان (٣١٢) غراماً تقريباً ، وأنه يدق في المتوسط في الدقيقة ليضخ الدم إلى سائر الجسم (٧٢) مرة ، وفي الساعة (٤٣٢٠) مرة ، وفي اليوم (٦٨٠و١٠٣) مرة ، وفي الشهر (٤٠٠و١١٠و٣) مليون مرة ، وفي السنة (٨٠٠و٣٢٤و٣٧) مليون مرة .

ويضخ في اليوم الواحد (٢٢٠٠) جالوناً من الدم ، وحوالي (٥٦) مليون جالون تقريباً على مدى الحياة ، وأن الدورة الدموية في جسم الإنسان تمتد حوالي (٣٠٠) كيلو متر،لتسقي هذا البدن فهل كنت تعرف ذلك؟

قال:لا ، ولكنك روعتني ، فدعني أستريح ، قلت: لا بأس .

ثم نهض قائلاً : وماذا بعد؟

قلت: وأثبت الأطباء أن جسم الإنسان يحتوي على حوالي (٦٠٠) عضلة ، وحوالي (٣٦٠) عظماً ، وأن في اللسان حوالي (١٧) عضلة تحركه إلى كافة الجهات ، وعلى سطح اللسان يوجد (٩٠٠٠) نتوء ذوقي، لمعرفة الطعوم وتذوقها فهل كنت تعقل ذلك ؟

قال: لا ، قلت: وذكر الأطباء أن في عين الإنسان حوالي (١٤٠) مليون مستقبلاً للضوء ، على شكل عصيات وفيها (٧) ملايين على شكل مخاريط .

مهمة الأولى الضوء المركز وتمييز الألوان ... ومهمة الثانية الضوء الضعيف والعادي ، وقالوا: إن الإنسان يستطيع أن يبصر يومياً حوالي

نصف مليون صورة من الموجودات ، يراها بألوانها وأحجامها ، ويحفظها بواسطة المخ ، فهل كنت تعلم ذلك ؟ قال: لا.

قلت:وذكر الأطباء أيضاً أن وزن كبد الإنسان حوالي (١.٥) كيلو ونصف ، وتحتوي على (٥٠) مصنعاً ما بين مستودعات السكر ، والدهون ، والفيتامينات ، وحجز السموم وتحويلها إلى مواد غير ضارة .

وقالوا : إنه يرد إلى الكلية في (٢٤) ساعة حوالي (١٨٠٠) لتر من الدم ، وتقوم الكلية بتصفية الدم من كل شوائبه في اليوم الواحد أكثر من (٣٦) مرة فهل كنت تدرك ذلك قال:لا .

قلت: وقالوا إن الدماغ يحتوي على (١٣) مليار خلية عصبية تقريباً تقوم بمئات الوظائف ، والتدخين يقتحم تلك المصانع العظيمة ، ويسطو عليها بلا رحمة ويفسدها ويضرها ، فهل كنت تعقل ذلك ؟ قال: لا .

قلت: وذكر بعض الأطباء أن في داخل مخ الإنسان جهاز طبيعي وهبه الله للإنسان ، ليمتص ويسكن الآلام الخفيفة التي يواجهها كل يوم في حياته ، والمواد الضارة الموجودة في السجائر تدخل الدم وتؤثر فيه ، حتى تصل إلى الدماغ الذي يتغذى كغيره من الدم ، فتُعطل تلك المواد ذلك الجهاز الطبيعي ، وتحل محله ، فيحس المدخن بين حين وآخر أنه بحاجة إلى التدخين .

وما ذلك إلا أنه عطل الجهاز الطبيعي المنتظم ، وأحل محله عدواً زاحم الجهاز الطبيعي ، وأجهز عليه ، فهل كنت تعرف ذلك ؟ .

قال: ما أعظم الخالق ، وأتقن صنعته ، وأجل حكمته ، وسعة حلمه على عباده ، وما أعظم جهلي بنفسي وخالقي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة/ ١٤٣] .

قلت: ولكن كثيراً من الناس يسكن في أرض الله ، ويأكل من رزقه ، ويتقلب في نعمه ، ويجحد فضله ، وينساه ولا يذكره ولا يشكره .

قال: وهل يجحد ذلك إلا معاند ومكابر ، قلت: وهذا من أعجب العجب في سلوك البشر .

فواعجباً كيف يُعصى الإِله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

قال: ألا ما أقبح الجهل ، إنه أظلم من الليل ، وأشد مرارة من العلقم .

وماذا قال:العلماء والاطباء عن خلق الإنسان بعدُ وفقك الله .

قلت: قالوا : إن مخلوقات الله عظيمة ، وهذا الإنسان واحد منها ، وهو كتاب مطوي ، لم يقرأ العلماء والأطباء منه إلا كلمات مجملة يسيرة تساوي ٢.٥٪ ، والباقي لم يُعرف حتى الآن .

قال: فهل لنا من أقوالهم في ذلك من نصيب ولو مختصراً .

قلت: قال:أحدهم [1] : انظر أيها الإنسان إلى النطفة ، وهي قطرة من الماء ، كيف أخرجها الرب من بين الصلب والترائب ، وكيف استخرجها من الرجل بالوقاع ، واستجلب دم الحيض من أعماق العروق ، وجمعه في الرحم .

ثم تأمل كيف جعل النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة .

فدوَّر الرأس ، وشق فيه السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم ، وسائر المنافذ .

ثم انظر كيف فتح الله العينين في الرأس ، ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات والأرض على اتساع أكنافها ، وتباعد أقطارها .

ثم شق أذنيه وأودعهما ماءً مراً ، ليحفظ سمعها ويدفع عنها الهوام ، وحوطها بصدفة الأذن ، لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، ولتحس بدبيب الهوام عليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات ، لتطول حركة ما يدب عليها ، فينتبه صاحبها فيطردها .

---

(١) هو الإمام الغزالي – إحياء علوم الدين – ٤/ ٤٣٦، ٤٤٠.

ثم رفع سبحانه الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ، ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاءً لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه .

ثم تأمل كيف فتح الله الفم ، وأودعه اللسان ناطقاً ، ومعرباً عما في القلب ، وزين الفم بالأسنان ، لتكون آلة الطحن ، والكسر ، والقطع ، وأحكم أصولها ، ورتب صفوفها ، وخلق الشفتين ، وحسَّن لونها وشكلها ، لتنطبق على الفم فتسد منافذه ، وليتم بها حروف الكلام ، فسبحان من خلق كل شيء فقدره تقديراً : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٠٢] .

وخلق سبحانه الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وجعل الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، والصلابة والرخاوة ، لتختلف بذلك الأصوات فلا يتشابه صوتان .

ثم زين الرأس بالشعر ، وزين الوجه باللحية والحاجبين والعينين ثم تأمل كيف خلق الله الرقبة ، وجعلها مركباً للرأس ، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات متطابقات .

ثم انظر كيف ركَّب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز

من ثلاثة أجزاء مختلفة ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين ، وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين ، وأصابع اليدين والرجلين ، فسبحان خالقها ومقدرها ومدبرها .

ثم انظر إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها سبحانه من نطفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدرها بمقادير وأشكال مختلفة ، فمنها صغير وكبير ، وممتد ومستدير ، ومجوَّف ومصمت ، وناعم وغليظ .

ولحاجة الإنسان إلى الحركة لم يجعل الله سبحانه عظمه واحداً ، بل جعلها عظاماً كثيرة ، وبينها مفاصل تسهل الحركة ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها في أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، وجعل في كل مفصل مادة دهنية تسهل الحركة ، وتمنع أذى الاحتكاك في كل مفصل .

ثم انظر كيف خلق الله سبحانه عظام الرأس ، وكيف جمعها وركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور والوظائف ، فما أجلّ قدرته ، وما أعظم صنعته .

ثم تأمل كيف خلق الله آلات لتحريك العظام ، وهي العضلات المنتشرة في بدن الإنسان ، كل عضلة مركبة من لحم وعصب ورباط

وأغشية،وهي مختلفة الأشكال والمقادير بحسب اختلاف مواضعها، وقدر حاجتها .

وأمْرُ الأعصاب والعروق ، والأوردة والشرايين ، وعددها ومنابتها ، أعجب من هذا كله .

ثم انظر كيف ركب الرب سبحانه الأعضاء الباطنة من القلب ، والمعدة ، والكلية ، والطحال ، والرحم ، والمثانة ، والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ، ومقدار مخصوص ، لعمل مخصوص.

فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها ، والمرارة تجذب الصفراء عنها ، والكلية تجذب الماء عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تدفعه إلى الإحليل، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن .

فسبحان من خلق هذه الأعضاء،وأحسن خلقها ، وسخرها ، وهداها، ألا إن الله على كل شيءٍ قدير :﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون/ ١٤] .

ثم تأمل كيف خلق ربك اليدين وطوَّلهما ، وعرَّض الكف ، وشق اليد بخمسة أصابع ، في كل أصبع ثلاثة أنامل ، ووضع الأربعة في جانب ، والإبهام في جانب ، ليدور الإبهام على الجميع .

وبهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلةً للضرب ، وإن ضمها ضماً غير تام كانت له مغرفة ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت له مجرفة .

ثم خلق الأظفار زينةً للأنامل ، وعماداً لها ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة، وليحك بها بدنه متى شاء ، فسبحان الخالق البارئ المصور: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر/ ٢٤] .

ثم انظر تمام رحمته سبحانه بعد كمال قدرته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي حينما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ ، كأنه عاقل بصير ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء ، كيف هداه إلى التقام الثدي .

ثم لما كان بدنه ضعيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة ، كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين ، وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر فم الصبي ، ليرضع منهما عند الحاجة .

فسبحان من له الخلق والامر ، وهو على كل شيء قدير : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ

خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ
﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[السجدة/ ٥-٩] .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ، كيف أَخَّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن ، فيستغني عن السن ، وإذا كبر احتاج إلى طعام غليظ يتطلب الطحن والمضغ ، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة .

ثم تأمل كيف رزق الله هذا المخلوق القدرة ، والتمييز ، والعقل ، والهداية ، تدريجياً حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقاً ، ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، إما شاكراً ، وإما كفوراً.

والعجب كل العجب ممن يرى خطَّاً حسناً ، أو صورةً حسنةً ، أو جهازاً مبتكراً ، فيعجب لذلك ويستحسنه ، ويصرف همه إلى التفكير في الخطاط ، والرسام ، والمبتكر ، ويُعجَب بقدرته ومهارته ويقول ما أحذقه ، وما أتقن صنعته ، وما أعظم إبداعه .

وينظر كل يوم إلى عجائب قدرة الله في الكون والإنسان والحيوان والنبات والجماد ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره ، فلا تدهشه عظمته، ولا يحيره جلال حكمته وقدرته : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا

يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾
[الأعراف/ ١٧٩] .

فهذا صنع خالقك في قطرة ماء واحدة ، فترى مَنْ هذا صنعه في قطرة ماء ، فما صنعه في ملكوت السموات والأرض ، إن كل ذرة في ملكوت السموات والأرض لا تنفك عن حكمة،بل هي أحكم خلقاً، وأتقن صنعاً،وأجمع للعجائب من بدن الإنسان:﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾
[غافر/ ٥٧].

فهل اعتبرت بقدرة الله وحكمته ورحمته وعظمته ؟

أم أنت غافل مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل ، وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وتلهو فتمرح ، وتغضب فتقاتل .

والبهائم كلها تشاركك في ذلك ، وإنما تمتاز عنها بالعقل الذي يعرف به الإنسان خالقه ، وينظر به في ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأنفس ، فيدخل بذلك في زمرة الملائكة المقربين ، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار/ ٦-٨] .

وليست هذه المنزلة للبهائم ، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ، فإنه شر من البهائم بكثير ، إذ لا قدرة للبهائم على ذلك ، أما هو

فقد خلق الله له القدرة والعقل والفطرة ، ثم عطلها ، وكفر نعمة الله فيها: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان/ ٤٤]. انتهى بتصرف.

قال: سبحان فاطر السموات والأرض ، أو كل هذه العجائب في قطرة من ماء ؟ وا أسفاه على ليال وأيام سلفت ، أهدرتها فيما يضر ولا ينفع ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، كأني لم أعرف ربي إلا الآن ، وقد قيل :

إذا المرء ألقى في السباخ بذوره ... أضاع فلم يرجع بزرع ولا بذر

ثم قال: وماذا بعد وفقك الله ، لقد نورت قلبي بما ذكرت ، فزدني رحمك الله.

* * * * *

قلت: إن الله سبحانه وتعإلى لما خلق الإنسان أرشده إلى ما يصلحه ، وحذره مما يضره فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة/ ١٧٢] .

وقال في صفة نبيه ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام/ ١٥١].

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة/ ٩٠].

قال: ما أجمل هذا الكلام ، زدنا بارك الله فيك ، فلطالما كنت أرفل في ثياب الغفلة ، في بحر لجي لا يُعرف ليله من نهاره ، وأنت خبير بأن اللقاء لقاح ، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته .

قلت: قد عَرفتَ كيف خلق الله هذا الإنسان ، وما أودع فيه من العجائب والأسرار ، ما بين قلب يعقل ، وعين تبصر ، وأذن تسمع ، ولسان ينطق ، ودماغ يعقل ويفكر ، ويحفظ ويستذكر ، وأجهزة عجيبة تعمل بقدرة خالقها ليلاً ونهاراً ، قد هُدِيَت بفطرة الله لها إلى ما يصلحها واجتناب ما يضرها ويفسدها : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم/ ٣٠] .

قال: كلام حسن لا تكلف فيه ولا تعسف ، وماذا بعدُ .. ملأ الله قلبك إيماناً.

* * * * *

قلت: سيارتك هذه هل لها من صانع ؟ قال: نعم ، قلت: وكيف عرفت ذلك ؟ قال:صناعته تشهد بوجوده ومهارته .. قلت: وزودك بتعليمات تكفل سلامة السيارة ، قال: نعم ، قلت: ولم ؟ قال: لتبقى سليمة نافعة .

قلت: هب أنك وضعت في السيارة مكان الزيت تراباً ، ومكان البنزين ماءً ، ماذا يحدث ؟ قال: تعطب السيارة في مكانها ...

قلت: من أخبرك بهذا ؟ قال:صانعها إذ هو الذي صنعها ، فهو أعلم بما يصلحها أو يفسدها .

قلت: هل جربت ذلك ؟ قال:وهل يُجرِّب ذلك عاقل ؟ قلت: ولم ؟ قال: لأن صانع السيارة حذر من ذلك ، لمعرفته بضرر ذلك .

قلت: ولو فعلت ذلك عن جهل ، قال: تتلف السيارة ، وتتحقق الخسارة ، قلت: وماذا تعمل ؟ قال: أسعى في إصلاحها أو استبدالها .

قلت: وهل تجد لها قطع الغيار ؟ قال:نعم ، ولكن بحقه من الثمن .

قلت: فإن صانع الإنسان أخبرك أنه لا يصلح لهذا الإنسان إلا ما كان طيباً من طعام وشراب فإن خالفت ذلك ... فالعطب ينتظرك ، والأمراض تفتك ببدنك .

قال: كأنك تشير إلى التدخين .

قلت: نعم ، أتؤمن بصانع السيارة وتنفذ كلامه ... وتجحد صانع الإنسان وتنكر كلامه!

إن هذا لعجيب ، وأعجب منه أنك تستنكر التجريب في السيارة مع قلة الخسارة ، وتجرب التدخين على نفسك يومياً وعن قناعة .

يا من يرفل في ثوب الغفلة ، ويركب المعاصي بلا حياء من ربه الكريم. أتكون هناك عبداً مطيعاً ، وهنا جباراً عنيداً ..!

أتعرف أي الصنعتين أعظم ، وأي الخسارتين أكبر ، بل أي الصانعين أعلم وأعظم ؟

وأعجب من هذا وذاك أنك مخلوق من خلق الله ، تسكن في أرضه ، وتأكل من رزقه ، وتتقلب في نعمه ، وترد أمره ، وتُقْدِم على نهيه ، وتجرؤ على معصيته ، وتطيع عدوك وهواك ، وتعصي من خلقك وسوَّاك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾ [الانفطار/ ٦-٨] .

أهذا شيء حسن..أهذا يليق بالمنعم..أهذا يصدر من عاقل؟:﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ [الحج/ ٤٦].

قال: وفقك الله إنها الذنوب والآثام تتراكم على القلوب ، وتصدُّ عن المعبود ، زدنا زادك الله علما وفضلاً .

* * * * *

قلت: وإذا عطب الإنسان في عضو من أعضائه ، هل تجد له قطع الغيار المناسب ، في الوقت المناسب ؟ ومن يبيعه ؟ وكم ثمنه ؟ ومن يقوم بتركيبه ؟ وهل يوافق ؟ ومن يضمن نجاح ذلك ودوامه ؟ مخاطرات،ومغامرات ، وجراحات ، وعمليات ، كلها بسبب التدخين، ينجم عنها خسارة عظيمة ، وأخطاء جسيمة .

ثم قلت : أتدري ما أصل التبغ؟ قال : لا.

قلت : التبغ شجرة سامة ، وهو نبات من الفصيلة الباذنجانية ، وهو من أخطر النباتات السامة.

وقد أدخله الإنجليز على المسلمين في عهد الدولة العثمانية، وأدخله إلى بلاد المغرب رجل يهودي يزعم أنه حكيم يداوي الناس ، ثم بعد ذلك انتشر في بلاد المسلمين في مصر والسودان والحجاز والخليج والشام وغيرها من بلاد المسلمين ، وهذا التبغ محرَّم ؛ لأنه خبيث وضار وسام .

قلت : أتدري كم يموت بسبب التدخين سنوياً؟ قال : الآجال بيد الله ، قلت : ولكن الله جعل للموت أسباباً ، والتدخين من أخطر الأسباب التي تسبب الوفاة ، إنه يمرض ويموت بسبب التدخين سنوياً أكثر من (٢٥) مليون من الناس في العالم .

والمؤسف حقاً أن هذا العدد يزداد في العالم الإسلامي وينخفض في بلاد الكفر.

والتدخين محرَّم لما فيه من قتل النفوس ، والله يقول : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء/ ٢٩] .

قال:ما أسرع الوقت يمضي في مثل هذا الحديث الجميل المقنع اللطيف .

قلت: أنسيت السجائر التي تشعلها كل لحظة ؟ قال: وهل بعد هذا من سجائر وخسائر ، لقد عزمت بحول الله عزيمة الأسد على سحقها

بقدمي ، وتدمير ما كان موجوداً منها بيدي ، طاعةً لربي وخالقي ورازقي ، وإيماناً مني بأضرارها الكثيرة ، وأخطارها الجسيمة .
قلت: وهل لذلك من علامة ؟
قال: نعم ، كان قلبي مظلماً يبغض أهل الخير والحديث معهم ... ويكره مجالسة الأخيار .. أهرُب من الفضائل والطاعات ، وأعكف على المعاصي والشهوات .
إذا كنت في المسجد كنت كالطير في القفص ، وفي اللهو والشهوات كالسمك في الماء .
وأنا الآن بحمد الله أشعر بل أجزم أني كنت غافلاً عن خالقي ، ظالماً لنفسي ، عاصياً لربي ، مطيعاً لعدوي : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد/ ٢٨-٢٩] .
وقد ندمت على ما مضى وعزمت على استدراك ما بقي من عمري بالصالحات والطيبات .
قلت: ولكن الشيطان لا يتركك تَفلتُ منه بهذه السرعة .
قال: حقاً وإنه ليحدثني الساعة فما العمل ؟
قلت: قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »متفق عليه[1].

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم (٥٢) ، وأخرجه مسلم برقم (١٥٩٩).

وإذا استنار القلب بنور الإيمان ، أدرك ما ينفعه وما يضره وانعكست آثاره على الجوارح بالأقوال الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الكريمة .

فعليك أن تسعى في إصلاح قلبك ما استطعت ، وذلك بإخراج الأعداء منه، فالتخلية قبل التحلية.

قال: وهل في القلب من أعداء ؟

قلت: وهل أعظم الأعداء إلا في القلب ، قال: وكيف ذلك ؟

قلت: ذكر بعض العلماء أن قلب الإنسان يحتوي على أربعة أوصاف، وهي: الصفات السَّبعية ، والبهيمية ، والشيطانية ، والربانية .

فالإنسان من حيث سُلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ونحوها .

ومن حيث سُلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق .

ومن حيث أنه في نفسه أمر رباني يدعي لنفسه الربوبية ، ويحب الاستعلاء والاستيلاء والتفرد بالرياسة ، ويدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور ، وتلك من صفات الربوبية .

ومن حيث تميز عن البهائم بالعقل مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية ، فصار شريراً يستعمل عقله في استنباط وجوه

الشر، ويصل إلى أغراضه بالمكر والحيلة والخداع ، وهذه أخلاق الشياطين .
والعقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره ، وأن يكسر شره البهيمية ، ويقهر الغضب إلى حد الاعتدال .
فإن قدر على ذلك اعتدل الأمر ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وجرى الكل على الصراط المستقيم .
وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه ، فلا يزال في استنباط الحيل ، وعبادة الشهوة ، وظلم العباد ، واتباع الهوى .
إذا عرفت ذلك علمت أن الشيطان يُهيج الشهوة والغضب في القلب ، ويزين له القبيح ، ويستدرجه إلى ما يضره ويهلكه في الدنيا والآخرة .
فواعجباً لك كيف صالحت الشيطان ، وهجرت ربك ؟ وكيف أطعته ، وعصيت ربك ؟
إذا أبصرت ذلك فكن على يقين أنّ الشيطان عدوك مهما نصح وزيّن ، وماذا تنتظر من عدوك سوى الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة .
قال الله تعالى عن الشيطان : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس/ ٦٠-٦٢].
وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر/ ٦].

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة/ ١٦٩] .

فاجتهد ألا يكون له عليك سبيل ولا يتم ذلك إلا بمعاداته ، والتوكل على الله سبحانه ، ومعرفة حقه ، وشكر نعمه ، والاستعانة به في جميع أمورك فإنه كافيك عما سواه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق/ ٢-٣] .

* * * * *

قال: ولكني أجده الآن يضايقني ، ويقول أما ترى الكفار يتقلبون في النعيم ، وهم على كفرهم ومعاصيهم ، وأنت تشفق من معصية واحدة .

قلت:فإذا وسوس بذلك فقل : إن الله خلق هذه الأرض ، وبث فيها من كل دابة ، وجعل رزقها عليه وحده سبحانه ، وقسَم ذلك بين الخلائق بالعدل : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود/ ٦] .

وهو سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى/ ٢-٣] .

والله سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطي الدين إلا من يحب ، وجعل رزق المؤمن إعانةً له على الطاعة والخير ، وابتلاءً يُعرف به الصابر والشاكر : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت/ ٢-٣] .

والرب سبحانه يرزق الكفار وغيرهم لا لاستحقاقهم ذلك ، ولكن لأنه سبحانه يعلم أنه لا رازق سواه : ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء/ ٢٠] .

وقد يكون هذا النعيم استدراجاً لهم ، وقد يكون مقابل أعمال خير يؤدونها في الدنيا ، فيأخذون أجرها في الدنيا ، لأنه لا حظّ لهم في الآخرة ، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ، بل إن النعم كلما زادت عند العبد اشتغل بها عن المنعم – إلا ما شاء الله – حتى يتكبر ويطغى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق/ ٦-٧] .

والعطاء مع الإيمان خير مع الخير ، والعطاء مع الكفر شر مع الشر : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة/ ٥٥] .

ومن حقائق القرآن الصريحة قوله سبحانه : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الزخرف/ ٣٣-٣٥] .

والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر ، إذا رأوا الكفار في سعة من الخير والرزق ، لأعطيت الكفار أكثر الأسباب المفيدة للتنعم ، ولكن كل

هذا متاع زائل ،والآخرة هي الباقية، وهي لمن اتقى الله ، لا لمن كفر بالله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران/ ١٩٦-١٩٨] .

ولا قيمة للدنيا بالنسبة للآخرة : ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت/ ٦٤] .

وقد قال النبي ﷺ:« لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » أخرجه الترمذي [1] .

ومن ثم ضُيق الرزق على بعض المسلمين ، وَوُسع على البعض الآخر ، ولم يوسع الله عليهم جميعاً ، ليكون سبب اجتماعهم على الإيمان لا على المال ، لأنه لو فعل ذلك لا جتمعوا عليه طلباً للدنيا ، ومن ثم يكون سبباً لآفات كثيرة كالحسد والعداوة والبغضاء .

والنبي ﷺ جمع الأمة على الدين فتحابوا عليه ، ولو جمعهم على الدنيا لتقاتلوا عليها.

فالشهوات والزينة والزخارف للقلوب أشبه بالقاذورات ، والإيمان والأعمال الصالحة مغذيات للقلوب ، حافظة لها .

قال: حقاً إن هذا لهو الحق المبين ،لقد ذهب عرش بلقيس ،ومال قارون ، وملك فرعون ، وبقي ميراث الأنبياء والمرسلين ، ونحن في غفلة عنه ،

---

(١) **صحيح/** أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠).

ورحى المنية تطحن : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون/ ٩-١١] .

فماذا بعد وفقك الله ، فقد أسفر الصبح عن ليل دامس ، وجهل فاضح .

* * * * *

قلت: أما إنه سيقول لك إن بعض الأطباء ، وبعض العقلاء ، يدخنون ، فما بالك تخرج من حضيرتهم ، وتزهد بسيرتهم .

فإذا قال ذلك فقل : هل شربوه بعقل أم بشهوة ؟ فإن قال بعقل ، فقل : ولكنه أعمى عن الحق ، إذ هم مجمعون على ضرره وخطره .

وإن قال بشهوة فقل : إن اتباع الشهوة والهوى يؤدي إلى الفساد العظيم ، الذي تأباه الفطر السليمة ، التي عرفت الحق فاتبعته ، ونبذت ما سواه واجتنبته كما قال:سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم/ ٥٩-٦٠] .

وأيضاً يقال له : إن أكثر الناس لا يشربونه ، فلم لا تبتهج بهم ، وتدخل في ركبهم ؟ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف/ ٢٨] .

وأيضاً سيقول لك : فإن الله يقول : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد/ ٧] .

فلا حرج عليك في الاستمتاع بما وهب الله لك فيما شئت .

قلت: فإذا قال ذلك فقل : فإن الله يقول : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف/ ٢٠] .

ويقول سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٢-٩٣] .

فإذا صرفت المال في وجوه الخير والحلال ، كان موصِّلاً إلى الجنة ، مع الإيمان والعمل الصالح ، وإن كان في الشر والحرام كان زاداً إلى النار : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون/ ٥٥-٥٦] .

وقال النبي ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » أخرجه الترمذي [1].

---

(١) **صحيح**/ أخرجه الترمذي برقم (٢٤١٧).

فأين من جمع الأموال بعضها على بعض من حلال وحرام ، وأنفقها في المعاصي والآثام ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب .
لقد ذهب المال ، وبقي السؤال من جهتين : من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه ؟
وأين من أضاع عمره وشبابه وماله فيما يضره ولا ينفعه ، لقد صرعه الموت على ضَلاله وبقي الحساب على المال والعمل ، فلا يغرنك عيش أحلى من العسل ، فالمحاسبة غداً أمر من العلقم : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة/ ٦-٨] .
وقال عمر رضي الله عنه : أيها الناس حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية.
فانظر ماذا تعمل ؟ ولمن تعمل ؟ وعلى أي طريقة تعمل ؟ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر/ ١٨] .
وسيقول لك : إن الله غفور رحيم ، فإذا قال ذلك فقل : ذلك لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ، وهو شديد العقاب لمن عصاه ؛ ليظل العبد دوماً بين الخوف والرجاء حتى يلقى الله ﷻ .

طاعة وثواب ، ومعصية وعقاب: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر/ ٤٩-٥٠] .

وسيقول لك : الأعمار بيد الله ، وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها ، فتمتع بما شئت ، فإذا كبرت فتب إلى الله ، قلت:هذه صفات الكفار والأنعام : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد/ ١٢] .

فإذا وسوس لك بذلك فقل : لو زرت المقابر لرأيت أكثر سكانها الشباب والصغار ، جاءهم ملك الموت على غير ميعاد ، بل تنفيذاً لما جرى به الكتاب ، فأخذ منهم الصغير والكبير ،

والغني والفقير ، والمطيع والعاصي ، والمقيم والمسافر : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرعد/ ٣٨] .

فالآجال مقدَّرة: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون/ ١١] .

ثم قل له: هل تضمن لي البقاء إلى غدٍ أو بعد غدٍ ، وأنت ترى رحى المنية تطحن ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً ؟ فقد أكون أحدهم اليوم أو غداً ، فأرحل بشر زاد ، وأخسر المعاد ، من أجل خدعة السراب : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران/ ١٨٥] .

وسيقول لك : هذا أمر قد جربته وألِفته ، فكيف تتحول عنه بهذه السرعة ؟

فإذا قال ذلك فقل : وهل تركته إلا بعد ما جربته ، وأيقنت بضرره ، أما أنك تعلم أنه شر ، ويعلم من يتعاطاه أنه مضر : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل/ ٦٣-٦٤] .

سبحان الله أتستنكر العزوف عن الشرور والرذائل ، ولا تستنكر البقاء عليها !

أيستوي الخبيث والطيب ؟ هيهات .. إن العاقل من عَقَله عَقْله عن كل مذموم : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة/ ١٠٠] .

وسيقول لك الأصدقاء ، والأحباب ، ومجالسهم ، وأنسهم ، ولياليهم، ستفقد كل ذلك ، وتحرم نفسك باختيارك ، وأنى لك بمثلهم .

فإذا قال ذلك فقل : إن من أتلف البضاعة ، يعلم يقيناً أنه سيفقد زبائنها، وقد أتلفت البضاعة ، فما أطلب ولا أنتظر من يطلبها : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر/ ٦٤-٦٦] .

فإذا قال:ولكن سيجمعك وإياهم مجلس أحياناً ، وتسمع استهزاءً وسخريةً ، فقل هذا سبيل الأنبياء والصالحين ، يسمعون من أعدائهم استهزاءً وسخرية ، ثم العاقبة لهم نصراً وعزاً ورفعةً وتمكيناً : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر/ ٩٧-٩٩] .

ومن حق أصدقائي وأحبائي ومن أعظم ما أهدي لهم أن أدعوهم – وإن أسمعوني ما أكره – إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة ، لعل الله يقيل العثرات ، ويتجاوز عن الهفوات ، ويخرجهم كما أخرجني من الظلمات إلى النور : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل/ ١٢٥] .

كان عيسى بن مريم ﷺ بين بني إسرائيل ، كلما أسمعوه شراً أسمعهم خيراً ، فقيل له في ذلك فقال: « كل امرىء ينفق مما عنده ».

فعليك بالصبر ، فإنه لولا بوادر السفهاء لم تُعرف فضائل الحلماء : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم/ ٦٠] .

فإن أجابوا كان الذي تحب ، وإلا تركتهم ، ورضيت بالله رباً ، وبكتابه وسنة رسوله والصالحين عوضاً عنهم : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾
[النساء/ ٦٩-٧٠] .

قال: سدد الله خطاك ، ما أعظم بركات هذا اليوم ، وقد أحببتك في الله، قلت:أحبك الله الذي أحببتني فيه ، وجمعنا وإياك والمؤمنين في مستقر رحمته .

واعلم بأن الهداية من الهادي ﷻ ، والرزق من الرزاق ، والعلم من العليم ، فقف ببابه ، وسله ما شئت من خيري الدنيا والآخره ، فإنه كريم يسمعك ويراك : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة/ ١٨٦] .

* * * * *

قال: جزاك الله خيراً ، لقد كنت سبباً في هدايتي وسعادتي ، وقد ألبستني حلة جديدة : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة/ ١٣٨] .

وقد علمتَ من حالي ما علمت ، فأنا مع التدخين أحلق شعر وجهي ، وأسبل ثيابي كما ترى ، وأحب أهل الفساد ، وأبغض الأخيار ، وأحسد الناس ، وأطلق اللسان في الغيبة والآثام ، ولا أقرأ القرآن ، ولا أجد لذة في المسجد ، ولا في الصلاة .

وأحب إيقاع الناس فيما وقعت فيه بالاستهزاء تارة ، وبالتزيين تارة ، وبإشعال السجائر لهم تارة ، وبشرائها وإهدائها تارة ، قلت:ظلمات بعضها فوق بعض ، سببها الجهل ، وإغواء الشيطان ، واتباع الهوى ، وإيثار الشهوة : ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء/ ١١٩] .

وهذا هو الضلال البعيد : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص/ ٥٠].

إن حسنة المؤمن المطيع لها أخوات ، وسيئة العاصي لها أخوات من جنسها ، وكل طاعة تزيدك طاعة ، وكل معصية تجرُّك لمعصية ، فعليك بالتوبة مما وقعت فيه ، والرجوع إلى الله ، فبيده الخير ، وهو على كل شيء قدير : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء/ ١١٠] .

قال: ولكني أسرفت على نفسي ، وتجاوزت حدي ، فهل يُقبل اعتذاري ؟ وتقال عثراتي ؟

قلت:إن الله يقول : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر/ ٥٣].

وربك رحيم كريم مجيب ، يحب أن تسأله ليعطيك ، وتستغفره ليغفر لك : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة/ ١٨٦] .

قال: حقاً.. كم أسرفت وتعديت ، وظلمت نفسي ، وربي يستر ويتجاوز : ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف/ ٥٣] .

وكم خسرت مالاً ، وخسرت صحة ، وخسرت وقتاً ، وخسرت دنيا ، وخسرت آخرة : ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر/ ١٥] .

قلت: ومع هذه الخسائر الفادحة التي اعترفت بها بسبب التدخين ، فإن أعداءنا يربحون من جهتين :

الأولى : أنهم يأخذون أموالنا ليستفيدوا منها ، ويعطوننا عوضاً عنها ما يفسد أجسامنا وعقولنا وأخلاقنا.

والثانية : أنهم يضعفون قوتنا وقدرتنا بأموالنا لا بأموالهم ، فتزيدهم أموالنا قوة ، وتزيدنا بضاعتهم الرديئة ضعفاً وعلة ، وهم يربحون من جهتين ، ونحن نخسر من عدة جهات .

فهل يستقيم هذا أيها اللبيب ؟ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق/ ٣٧] .

فانظر وتدبر ، فإن الله خلقك عاقلاً ، لتعرف ما ينفعك وما يضرك: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج/ ٤٦] .

قال: أطال الله بقاءك ، لقد نورت قلبي بفضل الله ، ودللتني على ما ينفعني ، كنت كلما دخلت الدار شربت وكلما خرجت شربت ، وأينما

سرت – راجلاً وراكباً – شربت ، وإذا استيقظت شربت ، وإذا أمسيت شربت ، وإذا أصبحت شربت ، وإذا جاء الغداء شربت ، وإذا جاء العشاء شربت ، وهكذا دواليك .

أنام على الدخان وأستيقظ معه ، وأحياناً من أجله ، أينما حللت فهو رفيقي لا يفارقني ، أطلبه بالسيارة ، وأحياناً في الظهيرة ، حتى استعبدني ، وصرت خادماً له .

أضاع مالي ، وأسقم بدني ، وأفسد خُلقي ، وأبعدني من ربي ، وملَّكني عدوي .

فالحمد لله على هدايته وتوفيقه حمداً لا ينقطع إلى أن ألقاه : ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران/ ٧٣-٧٤] .

قلت: حقاً إن معرفة العدو جزء من النصر عليه ، والذي هداك بشرك بما يسرك : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٥] .

ثم قلت: سبحان مقلب القلوب .. أكل هذا في قلبك مستوراً ؟

قال: وأعظم منه .. فقد كنت أسرق أحياناً لأشتريه .. وكم وقعت في الرذيلة بسبب تعاطيه .. وكم جرني إلى ما لا أحمد عليه .. وكم حرمني من مجلس أشتهيه .. وملكني واستعبدني حتى هممت بالتجارة فيه .

قلت: كفى ، ستر الله عليك ، والتوبة تجب ما قبلها ، ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه ، وأبشر من ربك بأنواع الخيرات والمسرات: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة/ ٧٢] .

قال: وداعاً له ، قد أرخيت الحجب بيني وبينه ، وعقدت العزم على تحذير الناس منه ، ورضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، والحمد لله رب العالمين : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٦١-١٦١] .

اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً على جهل مني ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، سبحانك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف/ ١٧] .

فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً ملء السماء وملء الأرض على نعمه التي لا تعد ولا تحصى : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية/ ٣٦-٣٧] .

قلت: تقبل الله دعاءك ، وحبب إليك طاعته ، وجنبك معصيته .

قال: غفر الله لك ، إنَّ لي ذنباً لا أحب ذكره كلما تبت منه ، رجعت إليه، فهل من علاج للخلاص منه ؟

قلت: نعم ، يروى أن بعض الصالحين جاءه رجل فقال له : إني كلما تبت من المعصية رجعت إليها ، فقال له :إني سائلك عن أمور خمسة ، فقال:ما هي ؟

قال له : هل تستطيع أن تسكن في أرض أحد غير أرض الله ؟ قال: لا : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة/ ١٠٧] .

فقال:له : كيف تسكن في أرض الله وتعصي الله !

ثم قال له : هل تستطيع أن تأكل من رزق أحد غير رزق الله ؟ قال: لا : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود/ ٦] .

فقال له : كيف تأكل من رزق الله ، وتعصي الله ، في أرض الله !

ثم قال له : هل تستطيع أن تعصي الله في مكان لا يراك فيه الله ؟ قال:لا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ [آل عمران/ ٥] .

فقال له : كيف تعصي الله وأنت تعلم أنه يراك !

ثم قال له : هل تستطيع إذا جاءك ملك الموت لقبض روحك أن ترده لأجل أن تتوب؟ قال: لا ، إن ملك الموت لا يستأذن على أحد : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون/ ١١] .

ثم قال له : هل تستطيع إذا أخذك زبانية جهنم ، ليقذفوك في النار ، أن تفلت منهم ؟ قال:لا : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم/ ٦] .

فقال له : فإذا كنت تسكن في أرض الله ، وتأكل من رزق الله ، والله مطلع عليك ، ولا حيلة لك في رد ملك الموت ، ولا قوة لك بين يدي الزبانية ، وجهنم لا طاقة لك بها ، فكيف تعصي الله! فقال: والله لا أعصي الله أبداً.

قال: ما أعظم حلم الله على عباده ، يخلقهم ، ويعافيهم ، ويرزقهم ، وهم يعصونه ، إن ربي لحليم غفور : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء/ ٢٧-٢٨] .

ثم قلت: إنّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، فتب إليه واستغفره : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام/ ٥٤] .

قال: اللهم إني جهلت فعصيت ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف/ ٢٣] .

قلت : ... قال: رويدك سأقول أنا ، قلت: وما تقول ؟ : قال:وفقني الله وإياك ، ما المنهج السديد الذي أسير عليه إن كان في العمر بقية لألحق بركب الأخيار ؟

قلت: أولاً أن تشكر الله على ما أنعم به عليك من الهداية ، وانشراح الصدر لطاعته ، وطاعة رسوله ﷺ ، ورؤية الحق حقاً ، والباطل باطلاً: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام/ ١٢٢] .

فأكثِر من الحمد والشكر لربك الذي خلقك ورزقك وهداك قائلاً : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه .

وثانياً : أن تعمل لما يحقق لك السعادة في الدنيا والآخرة ، على المنهج الرباني ، والهدي النبوي ، فإن الله يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران/ ١٣٢] .

وذلك بأن تعلم بأنك من خير أمةأخرجت للناس ، وأن الدين ركنان : عبادة الحق سبحانه .. والإحسان إلى الخلق : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء/ ٣٦] .

فكن بين يدي الله عابداً ، ذاكراً ، داعياً ، خاشعاً ، باكياً ، حامداً ، مستغفراً ، صابراً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج/ ٧٧] .

واعلم أن وظيفتك بين يدي ربك في خمسة أمور : طاعات تؤديها .. ومعاصي تجتنبها .. ونعم تشكرالله عليها .. وذنوب تستغفر الله منها .. وابتلاءات تصبر عليها.

وكن بين يدي الخالق داعياً ، ومعلماً ، ومحسناً ، تؤجر ويحبك الله والناس .

كن داعياً إلى الله كما أمرك ربك بقوله : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل/ ١٢٥] .

وكن معلماً لشرع الله كما أمرك ربك بقوله : ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ ﴾ [آل عمران/ ٧٩] .

وكن محسناً بما استطعت إلى خلق الله كما أمرك ربك بقوله : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾ [البقرة/ ١٩٥] .

وإذا فعلت هذا وهذا أكرمك الله بالسعادة في الدنيا والآخرة : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ

سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة/ ٧١-٧٢] .

وأبواب الخير كثيرة بحمد الله ، وأنواع الطاعات متنوعة بفضل الله .

فالصلاة والزكاة ، والصدقة والصوم ، والعلم والجهاد ... والذكر ، والحج والعمرة ... والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... والإصلاح بين الناس ... منابع الخير ، وغراس لا تنقطع ثماره في الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت/ ٣٠-٣٢] .

واعلم أن الدنيا كلها لغو ولهو ولعب إلا طاعة الله ورسوله : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء/ ١١٤] .

والحب .. والإخلاص .. والعدل .. ، والإحسان .. والعفو والإيثار .. والصدق ، والصبر .. والوفاء ، والتواضع ، وحسن الخلق .. حُلل يرتديها المسلم بين إخوانه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران/ ١٣٣-١٣٤] .

وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلتَ فَاسْأَلِ الله، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». أخرجه أحمد والترمذي(١).

واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد/ ٢٢-٢٣] .

واعلم أنه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات/ ١٣] .

والتقوى ألا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا يجدك حيث نهاك .

---

(١) **صحيح**/ أخرجه أحمد برقم (٢٦٦٩)، وأخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦).

وإياك وأصول المعاصي وهي ثلاثة : الكبر .. والحسد .. والحرص .

فإن الأول : صير إبليس إلى النار ، والمتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر ، يطؤهم الناس ، وإمامهم إبليس : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة/ ٣٤] .

والثاني : يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء/ ٥٤-٥٥] .

والثالث : أخرج آدم من الجنة ، وأُهبِط بسببه منها إلى الأرض : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة/ ٣٥-٣٦] .

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وتوكل على الله تكن أقوى الناس .

واحذر لسانك فلا تقل به إلا خيراً ، وبصرك فلا يقع على ما حرم الله ، وفؤادك فلا تُوْدعه إلا ما كان طيباً : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء/ ٣٦].

واعلم أن لربك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه .

وعليك بالاستقامة في جميع أمورك ، واعلم أن الدنيا والآخرة ضرتان، إن ملت إلى إحداهما أضررت بالأخرى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد/ ٢٠] .

كتب رجل إلى داود الطائي رحمه الله فقال: عظني فكتب إليه : أما بعد ، فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك ، كما رضي أقوام بالكثير منها مع ذهاب دينهم ، والسلام.

واعلم بأنك في الدنيا ضيف .. والمال وديعة عندك .. ويوشك الضيف أن يرحل .. والوديعة أن تُرد .. والعامل أن يسأل : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية/ ٢٥-٢٦] .

قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك حينما سأله : ما لنا نكره الموت؟ فقال أبو حازم : لأنكم عَمرْتم دنياكم ، وخربتم أخراكم ، فما تحبون الانتقال:من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : ليت شعري ما لنا عند الله ؟

فقال أبو حازم: تجد ذلك في كتاب الله ، قال سليمان : وأين أجده ؟ قال أبو حازم : تجده عند قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار/ ١٣-١٤] .

قال سليمان : فكيف القدوم على الله ﷻ؟ فقال أبو حازم :أما المطيع فكالغائب يَقدم على أهله فرحاً مسروراً ، وأما العاصي فكالعبد الآبق يَقدم على سيده خائفاً محزوناً .

قال سليمان : أوصني وأوجز ، فقال أبو حازم : اتق الله أن يفقدك حيث أمرك ، أو يجدك حيث نهاك .

فبادر إلى كل خير ، وسارع إلى كل عمل صالح ، فالدنيا دار الإيمان والعمل ، والآخرة دار الثواب والعقاب.

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فان بناها بخير طاب مسكنه ... ومن بناها بشر خاب بانيها

* * * * *

قال: زودك الله التقوى .. لقد أكرمتني بأحسن وجبة إيمانية في حياتي . لقد أسمعتنا ما ينفع ، وأسمعناك ما تكره ، ومثلك يقيل العثرات ، ويتجاوز عن الهفوات. قلت: لم يذنب من اعتذر ، وفقنا الله وإياك لكل خير ، إلا أننا غافلون عما ذكرت .

فالمؤمنون إخوة ، ومن لوازم الإيمان أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وإنما عدة المؤمن الصبر ، والله مع الصابرين ، والله يحب الصابرين ، وثواب الصابرين : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر/ ١٠] .

قال: حقاً إذا حصل القرب بالإخلاص لم يضر البعد بالأشخاص ، وإنما المؤمنون إخوة .

وقد آن لي الآن أن أعرف صديقي من عدوي ، وما يضرني وما ينفعني، وبماذا ألقى ربي .

قلت: سدد الله خطاك ، ورزقك كمال الإيمان والتقوى، وجمعنا وإياك والمسلمين في مستقر رحمته.

قال: كأنك تلوح بالفراق .. فما لي طاقة على الفراق .

قلت: إلى اللقاء ، قال: هل من وصية توصيني بها قبل الفراق؟

قلت: نعم ، استقم كما أمرت ... وعليك بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ فالزمهما ففيهما الهدى والنور ، وكل الخير والأجور : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة/ ١٥-١٦] .

ولتسعد في الدنيا والآخرة عليك أن تقتدي بنبيك ﷺ في أربعة أمور: في نيته .. وفي أقواله .. وفي أعماله .. وفي أخلاقه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب/ ٢١] .

وأبشر بكل خير ، وبشر بكل خير : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة/ ٢٥] .

فَانصَرف سالماً موفقاً ، ثبتنا الله وإياك والمسلمين على صراطه المستقيم ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [الصافات/ ١٨٠-١٨٢] .